

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

« صدق الله العظيم »

[الرُّوم : الآية ٢١]

كلامنا كثير عن المرأة ومركزها في التنظيم الاجتماعى الإسلامى وكلامنا عن حقوق المرأة فى شريعة الإسلام أكثر ، وقبل أن أكتب هذه السطور قرأت كل ما وقع تحت يدى من كلام المفسرين سابقين ولاحقين ، فأما السابقون من أهل العلم بالقرآن وتفسيره عندنا ، فكلهم كانوا أبناء عصورهم فى هذه الناحية والعصور الماضية كلها كانت عصوراً ظالمة للضعفاء قاسية على من لا يستطيع أن يحمى نفسه وحقوقه ، ولهذا فلا فرق بين العالم والجاهل فيها يتعلق بالنظر إلى المرأة ومعاملتها حتى حقوقها التى منحها الله إياها فى القرآن الكريم أكلوها واعتدوا عليها ، ومازال الكثيرون منهم على هذه الحال إلى أيامنا هذه ، وقد حضرت من سنوات طويلة كثيراً من جلسات المحاكم الشرعية ، ورأيت من صور الظلم للمرأة والاحتقار لها ما لم أتصور قط صدوره عن رجل صحيح الإسلام يعرف أن الإسلام هو دين العدل والرحمة والإنسانية .

حتى مفكرون وكتاب كالجاحظ وأبى حيان التوحيدي لا نجد للمرأة عندهم مكاناً يفضل مكان الخادمة الأجيرة اللهم إلا إذا كانت أما فهي تحترم في هذه الحالة للأمومة لا لمكانها ، وقد عرفنا في تاريخنا نساء فرضن احترامهن على الرجال وهؤلاء يخرجن من الحساب لأنهن كن جميلات جداً ، ورجالنا في الماضي كانوا ضعفاء أمام المرأة الجميلة ، في سبيلها قتل الرجال الرجال وقامت حروب ، ولكن حتى في هذه الحالة نجد أن الرجل إذا حصل على المرأة ونال إربه منها تركها جانباً وانصرف عنها ، بل ربما كان جمالها مصيبة عليها فهو يثير حسد الأخريات ويدفعهن إلى السعى في أذاها .

وفي كتاب بدائع الزهور لابن إياس حكاية امرأة جميلة اشترت جارية من بلاد القوقاز وعرضت للبيع في دمشق ، وتنافس فيها عدد من عليه القوم ، ووصل الأمر إلى القاضى ليفصل في القضية ، واجتمع المتنافسون في حضرة القاضى ، فنهض واحد منهم وضرب الجارية بالسيف فقتلها وقال : هاهى ذى ليأخذها من يريد ، وريع الناس لما حدث ولكن القاتل - وكان من أبناء كبار القادة المماليك - طلب من الخادم أن يصب له الماء على سيفه ليغسله قبل أن يضعه في قرابه ويخرج ، وصاح التاجر صاحب الجارية : ياسيدنا القاضى ألا تحاسبه ؟ فقال القاضى بعد أن استعاد روع نفسه : أحمد الله على أنه لم يقتلني ويقتلك ، فهذا مجنون ابن مجنون ، ولنحمد الله على أن المسألة انتهت بقتل امرأة لا روح لها ! .

وهذه الأفكار تخطر ببالي عندما أقرأ آيات الله سبحانه التى تراها في رأس هذا الفصل ، فهي إذا تدبرتها وقلبت معانيها رأيت أنه تضم فعلاً آيات من الحكمة الألهية في شأن الزواج والحياة الزوجية ، فإن الزواج الإسلامى في أساسه محبة ورحمة ومودة بين الرجل والمرأة ، لا يمكن أن يكون أن يكون هناك زواج سعيد يملأ القلب بهجة والنفس أمناً إلا بهذه المودة والرحمة ، وهنا ترى كيف أن

عامة الناس عندما لا يفهمون الزواج ولا يشعرون بهذه الناحية الروحية فيه ، ويعتبرونه مسألة مصلحة أو منفعة ، وفيما مضى كان الآباء هم الذين يزوجون البنات ، وكانوا يرغمونهن على قبول الزوج الذى يختارونه وكلمتهم المشهورة : إننى أبوها وأعرف بمصلحتها ، ويغيب عنهم أن الزواج ليس كله مصلحة ، حقاً إن المصلحة جزء منه ولا يمكن إهمالها ولكنه قبل كل شىء مودة ورحمة وسكن ، وإذا لم يجد الرجل فى زوجه السكن الأمن الذى تستريح إليه نفسه فلماذا يتزوج ؟ ثم إن عقد الزواج أيا كانت طريقة إتمامه هو فى النهاية عقد بين أزواج والزوجة دون غيرها ، وفى سورة النساء آيات بينات عن بعض جوانب الزواج أحب أن أتيك بها لتقرب من معنى الزواج وروحه فى الإسلام :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مَبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا . وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قَنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهَتَّانَ وَإِنَّمَا مِيبِنًا . وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

[النساء / ٤ - ١٩ - ٢١] .

ولو أنك تأملت هذه الآيات لرأيت أننا - نحن المسلمين جميعاً - نخالفها فى زيجاتنا . فإن المرأة هى الجانب الضعيف فى المجتمع الإسلامى . إنها الجانب المظلوم الذى يحمل عبء المجتمع ولا يكاد يفوز إلا بالجانب الأقل من خيره ، وأصحابنا الذين صاغوا قانون الأحوال الشخصية الصادر سنة ١٩٢٩ نسوا تماماً أنهم يشرعون لزواج إسلامى يقوم على الرحمة والمودة ، وإلى حين قريب كان القاضى الشرعى يقول وهو على منصة القضاء : إن الشريعة شىء وقانون

الأحوال الشخصية شىء .

وكانت عندنا من سنوات طويلة طاهية زوجها من رجل عتل بعضلها ويثقل عليها ويذهب بمعظم ما تكسبه ولكراحتها فيه لم تنجب منه ، ولكنه كان يمسك به طمعاً في مالها فشجعناها على رفع قضية طلب الطلاق بسبب الضرر والقاضى رفض الطلاق ، دون مناقشة وقال له المحامى : يامولانا أنت تقتل المرأة بهذه الصورة فإنك لا تعرف مقدار تعاستها معه ، فكان رد القاضى وهو ينتقل في سأم إلى القضية التالية : لو كان هذا الرجل قادراً على الكسب لأنفق على امرأته ، أما وهى تكسب فلتنفق هى عليه أم أنك تريد أن تعيش المرأة ويموت الرجل ؟ واستأنفنا الحكم وأتينا بمحام إنسان يفهمنا ونفهمه فاستطاع الحصول على الطلاق لا بسبب الضرر أو سوء المعاملة بل على أساس أن الرجل عاقر لا ينجب وكانت الزوجة فى السادسة والعشرين عندما طلقت ، وبعد سنتين من الطلاق زوجها فتى نجاراً اختارته بنفسها فسعدت معه أعظم سعادة وأهدته ذكوراً ثلاثة وبناتاً .

وأنا عندما أفكر فى موضوع الزواج والحياة الزوجية فى مجتمعنا الإسلامى إنما يتجه ذهنى فى الغالب نحو الفقراء وهم غالبية المسلمين ، وهنا تجد الزواج يخرج عن حدوده الإسلامية فعلاً ، وتتحول الزوجة إلى خادمة لزوجها ومنجبة لأطفاله وفى هذه الأوساط لا مكان للسعادة أو السكن أو الرحمة أو المودة ، وقد درجوا على ذلك وعاشوا فيه ولم يعودوا يشعرون بما يفوتهم من جمال الدنيا عندما يفوتهم الزواج الإسلامى القائم على الرحمة والمودة .

ونعود إلى آيات سورة النساء لنرى ما فيها من أسرار السعادة فى الحياة الزوجية ، ولنرى أيضاً كيف أن غالياتنا العظمى لا تكاد تلتفت إليها ، وفى الآية الأولى نرى كيف أن الله سبحانه يحرم علينا أن نستعمل قوتنا لكى نتغلب

على النساء وهن المستضعفات في مجتمعنا ، وأذكر بهذه المناسبة أن هناك جماعات كثيرة من المسلمين في كل بلاد الإسلام لا تورث النسوة وتحرمهن من حقهن الشرعى في الميراث بحجة أن المرأة تتزوج أجنبياً عن الأسرة فإذا هم أعطوها نصيبها من الميراث ، خرج جزء من ثروة الأسرة إلى رجل غريب أو أسرة غريبة ، وهذا الفريق من الناس ينسى أن الله سبحانه حرم هذا وقال إنه لا يحل ، ولكن بُعد الكثيرين منا عن روح الإسلام يصل بهم إلى مقارفة ما حرم الله في سبيل ما يسمونه بثروة الأسرة ، وقد حضرت ذات مرة مناقشة بين رجل من صعيد مصر يتسبب إلى أسرة تجرى على هذا المذهب ، وكان يناقش الشيخ مصطفى عبد الرازق وكان آل عبد الرزق أسرة مستنيرة تعرف الله والإسلام ولهذا فقد كانت تورث النساء ولا تقارف هذا الإثم العظيم .

ومن غريب ما سمعت من رأى المنادى بحرمان النساء من الميراث قوله إن النساء أنفسهن يرضين عن ذلك ولا يكرهنه ، فقال له الشيخ مصطفى بصوته الهادى الرصين : صدقنى يا فلان لا توجد امرأة واحدة في الدنيا ترضى أن يؤخذ منها ميراثها وحققها ، ولكنكم قساة غلاظ الأكباد تفعلون هذا الباطل وغيره وتقولون إنه الحق أو أن النساء يردنه لأنهن لا يحببن أن يصير مال الأسرة إلى غريب .

ثم يحرم الله عضل النساء لإكراههن على التنازل للرجال عما أعطوهن إياه من المهور أو الهدايا ، وهذا أيضاً يمارسه الكثيرون منا إلى يومنا هذا ابتزازاً للنساء وعدواناً عليهن ، وقد عرفنا رجالاً كثيرين تصل بهم الخسة إلى مطالبة النساء بالمال في مقابل الطلاق عندما تستحيل الحياة الزوجية بين الاثنين ، وأكثر من مرة سمعنا عن رجل طلب خمسة آلاف أو حتى عشرة لكى يطلق امرأة لا يحبها ولا تحبه ، ويصر على تركها كالمعلقة فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة وهذا أيضاً حرمه الله في آيات أخرى من سورة النساء قال سبحانه :

﴿ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا . وَلَنْ تُحْصُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا كَالْمُلْقَةِ وَإِنْ تَصْلَحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴾ [النساء ٤ / ١٢٨ - ١٣٠] .

وهنا كذلك نرى من جوانب الحكمة الإلهية في تنظيم العلاقات بين الرجل والمرأة ما يدلنا بالبرهان الساطع على أن هذا التنظيم الإسلامي هو خير تنظيم إذا أدركه الإنسان على وجهه وطبقه عن ثقة في أنه يضم كل جانب الخير لنا لو أننا نطبقه حق التطبيق ، فهنا نجد أن الله يعطى امرأة التي تخاف إعراض زوجها أو فقدان الحق في أن تسعى إلى الصلح إما بأن تناقش الأمر مع زوجها إذا توسمت فيه العقل والعدالة ، وإما عن طريق بعض أقاربها لأن الصلح خير ، وقد يتخاصم الزوجان وتبعد الشقة بينهما حتى يظنا أن سبل عودة الوثام قد تقطعت جميعاً فإذا جلس الزوجان وناقشا خلافهما في روية وحكمة تبين لهما أن الأمر أهون مما يظنان ، وهنا يذكرنا الله بأن نفوس الناس شحيحة بالخير ضئيلة بما تملك وهذا جزء من طبائع المخلوقات ، ولكنه لا ينبغي أن يكون جزءاً من أخلاق المؤمنين فنفس المؤمن لا ينبغي أن تكون أسيرة الأنانية والشح والبخل فيما يتعلق بعلاقات الإنسان مع أهله ، لأن امرأة الإنسان هي نفسه أو ينبغي أن تكون كذلك ، ثم توجه الآيات النصيحة بعد ذلك للرجال لأنهم هم الأقوى والأغلب فيقول لهم الله سبحانه إنهم لو أحسنوا وتفضلوا وأعطوا عن تقى ومحبة في الله سبحانه فإن الله يعلمه ولا ينساه لصاحبه ، وليس أبغض إلى الله سبحانه من المسلم الأثاني المتهمسك بقشور الحياة بكسبها ويفسد بذلك حياته الزوجية وهى ركن السعادة في هذه الدنيا ، ثم يؤكد الله للرجال وهو خالقهم وأعلم بأحوالهم

أنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ولو حرصوا على ذلك ، لأن الحقوق المادية هي أهون الحقوق على المرأة ، وإذا هي ضمنت حب زوجها وإعزازه إياها .

وقد عرفت في بعض البلاد العربية رجلاً واسع الثراء متزوجاً من أربع نساء وكان شديد الاجتهاد في المساواة بينهن في كل ما يعطى حتى ألوان السيارات كانت واحدة ولكنه كان مع ذلك بعيداً كل البعد عن السعادة وما نظرت إليه مرة وهو شارد بأفكاره عنى وعن الناس إلا وجدت غمامة أشبه بالسحابة السوداء تظلل وجهه ، وكنت أحاذر ألا أسأله عن شأنه ولكنه في ذات مرة قال عندما عاد إلى نفسه ألا لعنة الله على الإكثار من النساء كلهن في النهاية واحدة والواحدة أفضل فقلت له هذا يأخى مذهبي وأحسب أنه مذهب الإسلام لمن ينشد السعادة الزوجية ، أما طالب المتاع الذي يحسب أن زوج الاثنين أو الثلاث يجد ما لا يجده المقتصر على الواحدة فهو واهم .

ثم يأمرنا الله سبحانه بألا نميل عن زوجة كل الميل وندعها مربوطة بنا بخيط هالك فهذا ظلم للمرأة بين ، فإذا استحالت الحياة بينهما ، وانقطعت سبل الإصلاح فلا معنى للإمساك بالمرأة على رغمها وليكن الطلاق البغيض ففيه تحرير لنفسين من إसार زواج ظالم ، والله سبحانه ييسر لكل منهما سبيلاً للسعادة من عنده وهو سبحانه كريم واسع الأرزاق حكيم .

وفي الآيات الأولى التي استشهدنا بها في هذه الدراسة عن الزواج والأسرة في الإسلام نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً تَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ۝ ﴾ .

وفي هذه الكلمات القرآنية الحكيمة من الموعظة الحسنة مالا يتفطن إليه إلا القليلون منا ، وفي معظم كتب التفسير تقرأ أنه كان من عادة الجاهليين إذا أرادوا طلاق امرأة لم يطلقوا سراحها إلا بعد أن تعيد إليهم كل ما قدموه لها من مهر وهدية قبل الزواج ، فجاءت هذه الآيات لتوقف هذا الظلم البين ، وأنا عندما أقرأ مثل هذا الكلام يملكني العجب لإصرار الكثيرين على أن هذه الأعمال تقتصر على الجاهلية وأهلها مع أنها تصدر عن كل إنسان قاسى القلب عديم الإحساس ، وإلى أيامنا هذه مازال بيننا ناس ييغضون زوجاتهم ويتمنون الخلاص منهن ولكنهم يطلبون منهن مالا في سبيل إخلاء سبيلهن ، والنساء في أحيان كثيرة يجدن أنفسهن مضطرات إلى الخضوع ، لأنهن لا يستطعن الزواج أو التصرف في حياتهن مادمن على ذمة رجال أما الرجل فلا يضيره أن تظل الزوجة المكروهة في عصمته ، لأن ذلك لا يمنعه من الزواج والتصرف كيف يشاء ، وهذا وجه من وجوه سوء استعمال الرخصة التي أباحها الشرع للرجال في أن يتزوجوا الاثنتين والثلاث ، وقد أباح الشرع ذلك تيسيراً لشتون الحياة ، فإن الرجل قد يجد امرأته عقيماً أو مريضة أو غير قادرة على القيام بمسئوليتهما ، وبدلاً من أن يكون الحل الوحيد أمامه هو التخلص من تلك الزوجة للزواج بأخرى أبيع له أن يحتفظ بالزوجة الأولى والتزوج عليها ، وفي هذه الحالة تكون الزوجات الأوليات شاكرات للشرع الحنيف الذى يسر لهن البقاء زوجات على ذمة رجال يتولون شئونهن .

المهم أن القرآن يحرم على الرجال استخدام الرخصة التي منحهم الله إياها في استرجاع ما سبق أن قدموه إلى الزوجات ، والقرآن ينكر ذلك يقول : ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنِ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ .

والمسألة الأولى هنا هى مسألة إفشاء الرجل والمرأة بعضهما إلى بعض بعد الزواج ، والكثيرون منا لا يدركون أن المرأة إذا تزوجت وأفضت بنفسها لزوجها

فهى فى الحقيقة تقدم له أعلى ما فى كيانها ، لأن جسد المرأة هو سرها وقوتها وهى عندما تتزوج وترتبط برجل فهى تقدم كل ما عندها بذلك وانفصام عقد الزواج بعد ذلك يصيبها بخسارة كبرى ، وإذا لم تكن من ذوات الجمال الفائق الذى يتهافت عليه الرجال أو من بنات البيوت الكبيرة أو الغنية التى لا يعسر عليها العثور على زوج آخر قلما تتزوج بل إن مجتمع الرجال الذى نعيش فيه وتحكمنا عقلية يهبط بالمطلقة درجات لمجرد أنها مطلقة .

ولهذا فإن الإسلام أبغض الطلاق مع إباحته إياه ، فهو فى بعض الحالات القليلة حل لزيجات مستعصية .

ولكن ذلك فى الحقيقة قليل جداً والأساس فى الزواج هو الدوام مدى الحياة والمرأة تتزوج على هذا الأساس ، والزواج هو وظيفتها الأساسية فى الوجود ، ولهذا فإن الطلاق بالنسبة للمرأة ليس مجرد انفصام العقد مع رجل ، بل هو فى الحقيقة ضربة تزلزل كيان المرأة وتصيبها بأشد الأضرار . ولهذا فإن المرأة نادراً ما تطلب الطلاق وهى أحرص ما تكون على أن تنجح حياتها الزوجية وتنجب وتنشئ الأسرة وإنشاء الأسرة وتربية الأولاد هو تحقيق وجود المرأة كله .

ولهذا فإن القرآن يسمى عقد الزواج بالميثاق الغليظ ، والإسلام كما سبق أن ذكرنا يقوم كله على موثيق ، فأنت فى الإسلام لا تعطى شيئاً إلا كان لك مقابله وقد سبق أن أتينا بالآيات التى تقول إن الدخول فى الإسلام إنما هو أشبه بالدخول فى صفقة تجارية يجنى الإنسان منها كل خير وفى سورة التوبة نقرأ : ﴿ إِنْ أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ . وَعْدًا عَلَيْهِ حَقٌّ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ . وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ . وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة ٩ / ١١١] .

فالإيمان كما سترى صفقة فإن الحق سبحانه يعطى المؤمن الجنة والمؤمن يعطى ماله ونفسه فى سبيل الله وليس هناك أوفى من الحق سبحانه ، والإنسان فى دخوله الدين يفوز الفوز العظيم ، وهذا حق فى الإسلام واليهودية والنصرانية وقد سبق أن استشهدنا بهذه الآيات العظيمة فى قولنا إن الجهاد فى سبيل الله فرض عين لا فرض كفاية .

وميثاق الإنسان مع الله سبحانه عندما يدخل فى الدين هو جزء - أو نتيجة للميثاق الذى عقده الله مع النبيين ، والميثاق الأول هو ميثاق الله سبحانه مع بنى إسرائيل حينما أنزلت عليهم التوراة . وكل نبي بينه وبين الله ميثاق وهو تأكيد للميثاق الذى عقده الله سبحانه وتعالى مع نوح عليه السلام عندما عهد الله سبحانه إليه فى تجديد الخلق وأمره بإنشاء الفلك وهو ميثاق نجاة وخير وهو نفس الميثاق الذى عقده الله سبحانه مع النصارى جاء فى سورة المائدة : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [١٤ / ٥] .

ونفس الميثاق عقده الله سبحانه مع رسولنا صلوات الله عليه جاء فى سورة الأحزاب : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

[الأحزاب ٣٣ / ٧] .

وهذا هو الميثاق الأعظم بين الله والإنسان إنه عروة الله الوثقى وحبله المتين ، ولهذا وصفه الله بالميثاق الغليظ .

وكما وصف الله سبحانه ميثاقه العظيم مع الأنبياء وأهل الإيمان الصادقين

بأنه ميثاق غليظ فكذلك وصف عقد الزواج بأنه ميثاق غليظ ﴿ واخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ وهنا موضع حكمة ربانية عالية أرجو أن يتنبه لها القارئ الكريم حتى يتبين جلال الزواج في الإسلام ، فإن الزواج في الحقيقة ليس مجرد اتفاق بين رجل وامرأة ، وإنما هو في الحقيقة اتفاق وموثق بين الإنسان والمجتمع فإذا كان ميثاق الإيمان المعقود بين الله سبحانه وأنبيائه والمؤمنين هو أساس عمران الكون فإن ميثاق الزواج هو أساس عمران المجتمع كله وتلك هي الأهمية الكبرى للزواج في الإسلام .

ومن أسف أن جماعات المسلمين لم تعط عقد الزواج مكانه الحقيقي به فما زال عقد الزواج عندنا مجرد عرض وقبول خال من أى التزامات ، حقيقة إن هذه الالتزامات موجودة وهى مبنية فى وثيقة الزواج ولكن عامة الناس عندنا لا يعرفون فى الحقيقة القدر الجليل للعقد الذى يدخلون فيه عندما يتزوجون وغالبيتهم يهتمون بهاديات الزواج من مهر وهدايا أكثر من اهتمامهم بروحانياته ، ومعظمهم لا يذكرون أن أهم شىء فى الزواج هو ناحيته الروحية ، أى ذلك الرباط المقدس الذى يربط بين الرجل والمرأة ، وأنا أرى أنهم فى بلاد الغرب قد أعطوا الزواج وعقده من الأهمية أضعاف ما نعطي نحن . فان المسألة عندنا تتم وكأنها أقل شىء أهمية فى الحياة ، وأنت عندما تشتري أى شىء له قيمة مثل الدراجة النارية ، فأنت والبائع تذهبان معاً إلى مكتب الشهر العقارى لكى تسجلا تلك الصفقة الصغيرة ، أما إذا أردت الزواج فأنت تستقدم الدولة كلها ممثلة فى شخص المأذون لكى يعقد لك عقد زواجك وأنت مرتاح فى بيتك ، وهذا فى رأى لا يليق ، وقد آن أن نعطي عقد الزواج من المهابة والجلال ما هو جدير به فلا بد أن يتم العقد فى مكتب محترم تقيمه الدولة فى كل حى للزواج وكل ما يتصل به من شئون ولا بد أن يكون هذا المكتب مهيباً محترماً فيه كل وثائق زواج الحى .

والمأذون ينبغي أن يتوقف عن السعى إلى بيوت الناس حاملاً دفتره تحت إبطه حتى يعقد لهم زيجتهم ثم يعطونه مافيه القسمة ، وقد ابتذلت هذه الصورة وساء استعمالها حتى أصبح منظر المأذون وهو داخل بيت العرس منظراً يخلو من الاحترام والمهابة ، وهذه هي صورة المأذون وعقد الزواج في الكثير من الأفلام والمسلسلات التي نراها ، فهل هذا والله يليق بمقام هذا الميثاق الذي يصفه الله سبحانه بأنه موثق غليظ مثله في ذلك مثل موثق الإيمان ؟ .

إننى أراهم في الغرب أحكم منا وأقرب إلى الشعور بمسئولية الزواج وقدره ، فهناك مكاتب زواج رسمية معتمدة مهيبة وموثق الزواج وهو المأذون عندنا موظف محترم جداً يعقد الزواج في مكتبه بحضور الشهود ، وأنا لا أشير هنا إلى الزواج بعد ذلك في مكتب خاص في الكنيسة وهو عندنا يخرج مع العروسين إلى ساحة الكنيسة لشهر العقد يلقي كلاماً قصيراً يبين فيه أهمية العقد والتزامات الزوجين فيه فما دام قد ارتضيا الزواج فينبغى أن يعلما أمام الناس جميعاً أنه عقد مقدس بين رجل وامرأة يدوم حتى يفرق بينهما الموت ، وهذا لا يمنع من الطلاق فيما بعد إذا استحالت الحياة الزوجية ، ولكن الأساس في أى زواج جاد هو أن يكون لمدى الحياة ثم يعلن القس للزوجين أنه ارتباط على الحلوة والمرة لا يفصمه مرض ولا فقر ولا حاجة ولا أى عامل من عوامل الحياة ، وكلا الزوجين يتعهد بالوفاء والإخلاص والأمانة والحرص على سلامة الزواج ، ومثل هذه الطريقة في عقد الزواج تعطيه الأهمية الاجتماعية التي ينبغى أن تكون له ، أما طريقتنا فتتقصصها القيمة والمهابة ، ومعظم الذين يتزوجون من عوام الناس يعتقدون أن عقد الزواج هو عقد بين سيد وجارية ، فهو سينفق عليه ويستمتع بها وهي تستخدمه وتطيعه وتمنحه الأولاد ، وهذه القيمة القليلة التي لعقد الزواج عند هؤلاء الناس هي التي تهون عليهم الطلاق ، فإن كلمة الطلاق على ألسنتهم من

الصباح إلى المساء ولا توجد زوجة من هؤلاء إلا وهى تتوقع الطلاق من سيدها الذى اشتراها فى كل حين .

الزواج موثق غليظ يعقده الرجل والمرأة معاً على الحب أولاً ثم الإخلاص والتفانى والاشتراك فى حلول الحياة ومرها حتى يفرق بينهما الموت ، هكذا ينبغي أن ندخل فيه ونعيشه حتى نعرف قدره العظيم ومقدار ما يضيفه على حياتنا من رحمة ومودة وسكن للنفس والروح .
